المصاب العام

بوفاة السيد الامام

محمد رشيد رضا منشئ المنار (١)

إنا لله وإنا إليه راجعون

قضى الله بالأمر الذي قد قضى به ... وكان قضاء الله في الخلق جاريا

فيا ليتني ذقت المنية قبله ... ولم أر فيه ما يشيب النواصيا

مات السيد الإمام ، فانطفأ ذلك النور « المنار » الوهاج الذي امتد شعاعه إلى أقاصي المعمور أربعين عاماً ، وخفت ذلك الصوت الداوي الذي ملأ مسامع الكون هدياً وإرشاداً ، وسكن ذلك القلب الكبير الذي أشرب حب الإصلاح من أول العهد بالحياة . مات السيد الإمام ، فمات منار الإسلام المنير ، وتفسيراه الكبير والصغير ، وفتاواه في حل المشكلات العصرية ، بالأدلة

(١) المجلة : تأخر نشر هذه الترجمة لأسباب لا محل لذكرها هنا ، وقد كنا وعدنا القراء بنشر ترجمة وافية للفقيد رحمه الله تعالى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجامعة بين المعقول والمنقول ، المثبتة أن الإسلام هو دين الفطرة والعقل والعلم الصالح لجميع الأزمنة والأمكنة والأقوام .

أما بعد فهذه شذرات من سيرة ذلك المصلح العظيم استخرجتها مما خطته يراعته في مدة أربعين عاماً ، وأعظمه مجلة المنار الإسلامي ، وهي (٣٤) مجلداً ، وتفسير القرآن الحكيم وهو اثنا عشر مجلداً ، والجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام وهو في أكثر من ألف ومائة صفحة ، وكتاب المنار والأزهر عدا ما أعرفه منه (رضي الله عنه) مدة تشرفي بصحبته في سفره وإقامته ، في الشام والحجاز ومصر أثناء ستة عشر عاماً ، كنت فيها — كما كان يقول رحمه الله — صديقه الوفي ، وولده الروحي ، ويقول عني : إني أماثل في محبته لي وثقته بي أخاه الشقيق السيد حسين وصفي ، كذا سمعته من فمه في داره بمصر رحمه الله وجزاه خير الجزاء .

بيته ، سيادته ، نشأته

نشأ الفقيد العظيم في بيت دين وعلم وكرم وصلاح ، وسمعت منه رحمه الله أن أحد أجداده (ولعله الجد الرابع) قد قدم من شط الفرات (ولعله من ماردين) واختار الإقامة في القلمون ، وهي على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان ، تبعد عن مدينة طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال ، وكان أهل هذه القرية من السادة الأشراف المتواتري النسب ، وأهل بيت الفقيد ممتازون فيهم بأنهم أهل العلم والإرشاد والرئاسة ، ويلقبونهم بالمشايخ للتمييز بينهم وبين غيرهم .

وقد اشتبه على بعض العلماء والكتاب — دع الخصوم والحساد — نسب السيد الفقيد النبوي ، وقالوا : إن آل رضا ليسوا من سكان القلمون القدماء فكيف يكونون من ساداتها الأشراف ؟ ولقب هؤلاء السيد الفقيد « بالشيخ رشيد » ونفذ خصومه من هذه الناحية فاتخذوا كلمة « الشيخ » غمزاً له

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومطعناً في صحة نسبه الشريف ، والجواب (١) هل يلزم من كونهم ليسوا من قدماء أهل القلمون ألا يكونوا أشرافاً مثلهم ؟ وهل انحصر شرف النسب النبوي في أهل القلمون . (٢) إن لآل رضا سلسلة نسب تثبت أنهم من آل بيت النبوة ، والناس مؤتمنون على أنسابهم كما جاء في الحديث . (٣) إن أهل هذه القرية لم يكونوا يزوجون إلا من كان شريفاً مثلهم ، ووالدة الفقيد شريفة من أهل القلمون . (٤) إن الشرف من جهة الأم ثابت كالشرف من جهة الأب على السواء ، وإن الأسباط في شرف النسب كالأحفاد ، والاناث منهم كالذكور ، وهل كان شرف الحسن والحسين إلا من جهة أمهما فاطمة الزهراء البتول (عليهم السلام) وهل كان نسل النبي الأطهر إلا منها ؟ وان الذين أعقبوا من أولادها هم الحسن والحسين وزينب (ع م) ومن هؤلاء تفرعت أغصان تلك الشجرة المباركة في جميع أرجاء الأرض ، فأولاد السيدة زينب من بنين وبنات — في صحة الشرف ونسبه — كأبناء أخويها الحسن والحسين ، وقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي بكرة (رض) قال : بينا النبي (ص) يخطب جاء الحسن فقال النبي (ص) إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، فأطلق الابن على ابن البنت .

والحاصل أن أصل شرف النسبة في هذه الأمة من النساء ، وأعني السيدة فاطمة الزهراء ، ولعمري ان هذا يعد من أكبر محاسن الإسلام ، إذ كرم المرأة وجعلها تشاطر الرجل الشرف ، وقد رأينا أن نجلو هذه الحقيقة ، ونزيل شبهة المنكرين والشاكين .

نشأ السيد الفقيد متصوناً ديناً ، شديد الحياء ، كثير العبادة ، عف اللسان والقلب ، بعيداً عن كلام الفحش والمجون . وكان في صغره ميالا الى العزلة ، قليل الرغبة في اللعب مع اللدات والأتراب ، شديد العناية بمطالعة كتب الأدب وكتب التصوف .

كنت أقرأ في المنار المنير وصف تلك النشأة الطيبة الطاهرة التي نشأها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقيدنا العظيم في القلمون ، وأتخيل كتّاب القرية الذي درس فيه القرآن الكريم ، وتعلم فيه مبادئ القراءة والكتابة ، والمسجد القلموني الذي كان يعظ الناس فيه ويخطبهم ، ويؤمهم في الصلوات الخمس أيضاً ، والغرفتين المطلتين على البحر في ركني المسجد الشماليين ، وكانت احداهما خلوته وعبادته ، والثانية لمطالعته ومذاكراته ، ومنزل السيد الامام ، ومنازل آله الكرام ، كنت أمر في المنار على وصف هاتيك المباني والاثار فيحلو لي وصفها ، ويخيل إلي أنها ماثلة أمامي وأنا أشاهدها ، على أن الخبر ليس كالعيان ، وما الطف قول الامام ابن حزم رحمه الله :

ولكن للعيان لطيف معنى لذا سأل المعاينة الكليم

ولما ألح بي الشوق لرؤية ذلك المسجد الذي بناه جد المترجم الثالث ، والمنازل الرضوية التي لها منازل في القلب ، ودرجات في الحب ، كما قال أبو الطيب « لك يا منازل في القلوب منازل » امتطيت سيارة من دمشق إلى بيروت ، وصحبت منها صديقي الاستاذ الشيخ محمد سعدي ياسين الدمشقي ، فبلغنا مسجدها أذن الجمعة ، وسمعنا خطبة الاستاذ المعمر الشيخ محمد كامل عم السيد الفقيد ، ووالد صديقنا الاستاذ السيد عبد الرحمن عاصم ابن عم السيد وتلميذه ، وزوج شقيقته ووكيل مناره ، وقد كان حاضراً فبتنا ليلتنا في ضيافته منشرحي الصدور ، قريري العيون ، بما زرنا من تلك المنازل العامرة ، ورأينا من تلك الآثار المباركة ، وقد أنسنا هناك بلقاء شقيقي السيد الأستاذين السيدين أدهم وحسن رضا وأولهما شيخ متعمم والثاني غير متعمم .

قرأت درساً عاماً بعد صلاة العصر في المسجد شرحت فيه حديث النية والهجرة ، « انما الاعمال بالنيات » وختمته بمخاطبة اهل القلمون قائلا : لقد ظهر منكم ونشأ فيكم ، رجل لا كالرجال في فهم مقاصد الدين والدفاع عن حوزته ، والوقوف في وجه جميع الطاعنين في الاسلام والطامعين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في أهله من جميع الملل والشعوب والاقوام ، ألا وهو السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار وتفسيره ، وكفاكم بذلك فخراً وفضلا . ثم اقترحت عليهم أن يرسلوا منهم كل عام بعثة لتدرس في مصر تحت رعاية هذا الامام ويكونوا مرشدين ودعاة في الاقطار العربية والاسلامية والممالك الغربية ، وكتبت إلى السيد بذلك فسر رحمه الله ، وكان ذلك قبل وفاته بنحو عام .

لم يكن طلب فقيد الامة الرشيد للعلم لغرض دنيوي من تحصيل علم أو جاه ، أو رغبة في خدمة الحكومة والترقي في مناصبها ، وإنما كان بوازع الفطرة ، وباعث الايمان ، وحب ارشاد الامة والفوز بمرضاة الله تعالى ، ولهذا لم تطل مدته في المدرسة الرشدية الابتدائية في طرابلس ، اذ كانت دروسها باللغة التركية ، وكانت معدة لتخريج الموظفين ، فتركها بعد أن درس فيها سنة واحدة ، ودخل المدرسة الوطنية الاسلامية ، التي كان يديرها العلامة المصلح الشهير الشيخ حسين الجسر رحمه الله ، وكانت تدرس جميع دروسها العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية باللغة العربية ، وتدرس اللغتين التركية والفرنسية . وقد اشتهر الاستاذ الجسر رحمه الله بهذه المدرسة الدينية الوطنية ، وبكتابه المسمى بالرسالة الحميدية .

أما المدرسة فقد انشأها لتخريج الطلاب في العلوم والآداب ، وإعدادهم ليكونوا بمعارفهم وفضائلهم من مرشدي الأمة ، وقادة الرأي العام فيها ، في عصر كثر فيه اختلاط الامم بعضها ببعض ، وتنوعت فيه مطالب الحياة ، واقتبس الشرق من الغرب مزايا ورزايا ، وفتحت أبواب العلوم والفضائل ، كما فتحت أبواب المناكر والرذائل ، التي يعدها الفساق من لوازم المدنية الحديثة فأراد الاستاذ الجسر أن يكون طلابه حلقة اتصال بين المتهورين والجامدين ونقطة اعتدال بين الغالين والمقصرين ، فأعدلها الدروس الجامعة بين علوم الدنيا وعلوم الدين ، ولكن المؤسف أن الحكومة العثمانية لم تشأ أن تعدها من المدارس السنية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية ، فانظر إلى هذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الغباوة ، وعلى أي قاعدة من قواعد الجهل" والظلم بنت وجهة نظرها يا ترى !! أكان جريمة وإثمًا أن يتعلم طلاب العلوم الدينية على الطريقة العصرية ، وان يدخلوا في منهاجهم ما يحتاجون إليه من العلوم المدنية واللغات الأجنبية على أن اللغة التركية كانت لغة الدولة الرسمية ، واللغة الفرنسية هي لغة علم وفن ، فماذا على طالب العلم لو درسها واتقنها ما استطاع بنية الاصلاح ؟ وقد صح أن النبي (ص) أمر زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة العبرية فتعلمها وأتقنها ، ولو مد الله في أجل هذه المدرسة الدينية العلمية ذات التربية الاسلامية الوطنية ، لتخرج منها في ذلك العهد — أي منذ نصف قرن تقريبًا — حزب اسلامي اصلاحي معتدل ، يقف في وجه المدارس الاجنبية والحركات التبشيرية ، ويدير الحركة الاصلاحية على طريقة امامي العصر السيد جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده المصري ، رحمهما الله تعالى .

وأما الرسالة الحميدية ، فسبب تأليفها أن مؤلفها رحمه الله كان قرأ بعض مقالات مترجمة عن الصحف الاوربية منسوبة لبعض أحبار الانكليز المدعو اسحق طيلر ، قد حاول فيها التوفيق بين معتقد الاسلام ومعتقد المسيحيين ، وإقامة الدلائل على تقاربهما ، وتشابه كتبهما ، وبلغ المؤلف أيضًا أن بعضًا آخر من رجال الانكليز المتضلعين في اللغات والفنون قد سعي في تلك الأيام ببناء معبد للاسلام في البلاد الانكليزية وأنه يباشر هناك نشر جريدة عربية يكون جل مقصدها البحث عن حقيقة الدين الاسلامي واشهار فضائله لدى غير العارفين بها ، فخطر لصاحب الرسالة اذ وجد مجالا للكلام وسميعًا للنداء أن يحرر رسالة يستبان منها حقيقة الدين الاسلامي باسلوب جديد سهل الفهم لا تمله الانفس ، ولا تستوعره الافكار ، يروق العقول الحرة ، ويعجب الاذهان المطلقة من قيود التعصب ، هذا بعض ما جاء في طليعة الرسالة الحميدية ، وقد اشتملت على اثبات المعبود واجب الوجود ، وتحقيق نبوة خاتم الرسل صلوات الله عليهم ثم الكلام على أسرار العبادات ، وحقائق المعاملات وأحكام الحدود والتعازير والديات ، وأطال الكلام مع المأديين فقد شكوكهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وشبهاتهم ، وأبطل دعاويهم ودحض حججهم ، وتكلم على حكمة الجهاد ، وتعدد الزوجات ، والطلاق ، والاسترقاق وتقريره في الشرائع المتقدمة ، وتحرير الرقيق في الاسلام ، وكيفية معاملة أبناء الملل السماوية في الشريعة الاسلامية وختمها ببيان مآخذ الاسلام الاربعة وهي الكتاب والسنة والاجماع والقياس وتكلم على شروط الاجتهاد ، وقد سد بابه مطلقاً فلا نفتحه عليه رحمه الله .

فهذا الاستاذ المربي الكبير ، والمصلح المؤلف الشهير ، منشئ المدرسة الوطنية ومؤلف الرسالة الحميدية ، هو الاستاذ الاول للمترجم ، وهو الذي تخرج على يده في العلوم العربية والشرعية والعقلية ، وقد وصفه هذا التلميذ البار بقوله : وكان له المام واسع بالعلوم العصرية كما يعلم من كتابه « الرسالة الحميدية » وكان كاتباً وشاعرا عصريا ، يكتب وينظم في كل موضوع بعبارة سهلة ، وكان له أسلوب خاص في التعليم غير اسلوب الازهر ، يتحرى فيه السهولة في البيان ، ويتجنب المناقشة اللفظية ، واستطرادات الحواشي ، فلم يكن يذكر منها إلا مالا يتم تحرير المسالة إلا به . وتلقى الفقيد الكبير فقه الشافعية وفن الحديث على شيخ الشيوخ في طرابلس الشام الشيخ محمود نشابه الذي حمل شهادات الازهر بثمانية عشر علما ، وقضى فيه ثلاثين عاماً عالماً ومتعلما ، وكان من مشايخه مثل الباجوري ، ومن اخوانه الانبابي والاشموني .

وحضر على العلامة الفقيه الصوفي الشيخ عبد الغني الرافعي قليلا من كتاب نيل الاوطار للشوكاني ، وكان الرافعي فقيه النفس مستقل الفكر ممتازاً بين فقهاء عصره بالجمع بين النبوغ في علوم الشرع والتصوف والادب ولي القضاء بولاية اليمن ، فكان إذا ظهر له رجحان مذهب الزيدية مثلا على مذهب الحنفية الذي نشأ عليه تحصيلا وعملا وافتاء وقضاء لا يمتنع من القول بترجيحه .

فكان السيد المترجم رحمه الله بما وهب من سلامة الذوق ، وقوة الاستعداد ، وتوقد الذهن ، وبما رأى أساتذته عليه « الرافعي » من فقه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النفس واستقلال الفكر ، و«التشابه» من حب الاستقصاء والتحقيق في العلم . و«الجسر» من الوقوف على روح العصر ، وحالته العلمية والاجتماعية والسياسية والعناية بمطالعة الصحف والمجلات العالمية ، والاقتناع بحاجة المسلمين الى مجاراة الامم الغربية في العلوم والفنون التي عليها مدار العمران ، والقوة في هذا الزمان ، مع المحافظة على أصول الاسلام وهديه وآدابه ، لا جرم كان بكل هذه المزايا الموهوبة والمكسوبة عالما مستقلا مستدلا ، ظاهر الحجة قوي العارضة ، شديد المعارضة ، لا يقبل منقولاً لم يثبت دليله ، ولا معقولاً لم تستبن سبيله ، وكان له مع اساتذته بسبب هذا الاستقلال في العلم والرأي مواقف مشهورة وإليك مثالاً من موقفه مع أستاذه الجسر كما حكاه في مناره ، قال رحمه الله [1] :

لما طبعت الرسالة الحميدية أهداني نسخة منها . ثم سألني بعد ايام هل قرأت الرسالة ؟ قلت قرأت بعضها ، قال انه يعجبني رأيك فكيف رأيتها قلت بعد الثناء عليها بالاجمال : انني انتقدت منها شيئين (أحدهما) التعبير عن المسائل العلمية القطعية التي تعتقدون صحتها ككروية الارض بما يدل على الشك او الانكار ، فاعتذر عن هذا بمراعاة عقول العوام والمتعصبين الذين يطعنون في دين من يقول بهذه المسائل . فقلت اذا لم يتجرأ مثلك من الموثوق بعلمهم ودينهم على الجزم بهذه المسائل فمن يجزم بها ومتى يكون ذلك ؟

(والثاني) عدم تقسيم الرسالة الى أبواب وفصول بوضع لكل منها عنوان يدل عليه على نحو ما هو مفصل في الفهرس لتنشيط على المطالعة ، وسهولة المراجعة ، فقال : إن اتصال الكلام بعضه ببعض كالماء الجاري من حسن الانشاء وأساليب البلاغة ، قلت فلماذا جعل القرآن سوراً وهو أبلغ الكلام وافصحه ؟

وننقل أيضاً مثالا آخر ، وهو مأثرة تاريخية للفقيد ، جمعت بين جمال

(١) المنار ج ٣ م ٢٠١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوصف ، وإيثار الحق ، وانكار الأستاذ على تلميذه ، ولطف مراجعة التلميذ لأستاذه ، وهي مثل حال للمعلمين والمتعلمين نأثره بنصه من كتاب المنار والازهر كما حكاه المؤلف عن نفسه قال (ص ١٧١) :

(أول حادثة لي في الانكار العلني) :

قيل لي : ألا تتفرج على مقابلة المولوية في تكيتهم التي تشبه جنة الآخرة في مكانها من ضفة نهر أبي علي ؟ قلت نعم ، فذهبت بعد صلاة الجمعة مع الذاهبين ، وكان أول افتتاح موسم هذه المقابلات من فصل الربيع فجلست في ايوان النظارة (المتفرجين) فمتع البصر برؤية جنات البرتقال ، والشم بعبير زهرها ، والسمع بخرير ماء النهر من تحتنا ، حتى اذا ما آن وقت المقابلة تراءى أمامنا دراويش المولوية قد اجتمعوا في مجلسهم تجاه ايوان النظارة ، وفي صدره شيخهم الرسمي ، وإذا بغلمان منهم مرد حسان الوجوه ، يلبسون غلائل بيضاً ناصعة كجلابيب العرائس ، يرقصون بها على نغمات الناي المشجية ، يدورون دورانا فنيا سريعاً تتفرج به غلائلهم فتكون دوائر متقاربة ، على أبعاد متناسبة ، لا يبغي بعضها على بعض ، ويمدون سواعدهم ، ويميلون أعناقهم ، ويمرون واحداً بعد آخر أمام شيخهم فيركعون له ، قلت ماهذا ؟ قيل هذا ذكر طريقة مولانا جلال الدين الرومي صاحب المثنوي الشريف :

لم أملك نفسي أن وقفت في بهرة النظارة وصحت بأعلى صوتي بما معناه : « أيها الناس أو المسلمون : ان هذا منكر لا يجوز النظر إليه ، ولا السكوت عليه ، لانه إقرار له ، وإنه يصدق على مقترفيه قول الله تعالى « اتخذوا دينهم لهواً ولعباً » وانني قد أديت الواجب علي فاخرجوا رحمكم الله ، وخرجت من المكان راجعاً أدراجي الى المدينة مسرعا ، وفي أثناء المسير التفت فوجدت ورائي عدداً قليلا قد رجعوا ، وبقي الاكثرون لم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ينكروا عليّ ولا على القوم بقول ولا عمل ، ثم كانت هـذه الحادثة الغريبة حديث موضوع تمزهم مدة طويلة ، فمن عاذل وعاذر .

اتفق في تلك الايام أن دعاني رجل وجيه من معارف والدي الى سيران في بستانه مع شيخنا الاستاذ الشيخ حسين الجسر ، والشيخ عبد الله البركة واثنين آخرين من العلماء ، وهنالك سألني شيخنا عن الحادثة ، ولم يسألني عنها في المدرسة ، فذكرتها له باختصار ، قال : اني أنصح لك أن تكف عن أهل الطريق ، قلت هل لأهل الطريق أحكام شرعية غير الأحكام العامة لجميع المسلمين ؟ قال لا : ولكن لهؤلاء في سماعهم نية غير نية سائر الناس ووجهة إلى الله غير وجهتهم ، ومالك تخصهم بالانكار عليهم ، وان من أهل اللهو من يسمعون الاصوات والأوتار في ملاهيهم ، بل بالغني أن بعضهم يقامرون ليلا في قهوة العيوني ، قلت إن أهل الطريق ذنبهم أكبر من أهل اللهو ، لانهم جعلوا السماع المنكر ، ورقص حسان الغلمان عبادة مشروعة ، فشرعوا لأنفسهم من الدين ما لم يأذن بـه الله ، على أني لم أر منكراً آخر ولم أنكره ، وأنا غير مكلف أن أذهب في آخر الليل الى قهوة العيوني فاستفتحها لأرى ما فيها وأنكر عليه ، فلما اعييته ، قال : ان مذهبنا (يعني الحنفي) اشد من مذهبكم (الشافعي) في تحريم السماع ، ولكنني انصح لك أن لا تعترض على أهل الطريق !!

يتبع

محمد بهجة البيطار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net